الدارة

د. ... افعي

استاذ ...

كلية الهندسة – جامعة الرياض

دراسات أسس وتطورات

العمارة في ال

عالم الإسلام

هذا







لقد كانت الحملة الفرنسية على مصروالشام في نهاية القرن الثامن عشر وأول التاسع عشر حدثا ذا آثار بالغة بعيدة المدى على حضارة الشعوب العربية والاقطار الاسلامية ، فهي لاتقل في ذلك ان لم تزد على آثار حملة الاسكندر المقدوني على الشرق الاوسط من قبل ذلك بنحو اثنين وعشرين قرنا .

فالى جانب الاهداف السياسية التي كان يتوخاها نابليون من حملته تلك فقد كانت هناك أهداف علمية وضعت لها خطط مدروسة محددة ، وتم تنفيذها على وجه يستحق التقدير والاعجاب ، اذ تبلورت جهود العلماء على اختلاف درجاتهم العلمية الذين صحبوا تلك الحملة وأسفرت عن أبحاث علمية عظيمة القيمة أخرجت في موسوعة رائعة عرفت باسم :

(وصف مصر) Description de L'Egypte

وتتكون من ١٤ مجلدا يحتوون على احصاءات وتسجيلات ودراسات مكتوبة ، ثم نحو ثمانية أطالس ضخمة تضم رسومات في غاية الدقةوالاتقان وشرحت هذه الموسوعة كتابة ورسما وصف كل ماأمكن للعلماء الوصول اليه من معلومات عن مصر والمصريين وعن حياتهم ونشاطاتهم وعن زراعاتهم وحرفهم وملابسهم وأزيائهم ، ومن الحيوانات وأنواع المزروعات وغيرها ، ثم عن فنونهم والآثار الباقية من عصور ماقبل التاريخ حتى وقت وصول تلك الحملة .

ولم تكن تلك الحملة بأول احتكاكالاوربيين بالشرق الاوسط وبالبلاد العربية والاسلامية فقد سبقتها كما هو معروف العديد من حملات الصليبيين الذين حاولوا جهدهم الاستيلاء على بلاد العرب والمسلمين أو على الاقل على أجزاء منها ، ولم يكفوا عن ذلك الا منذ أن عصفت حملات المغول بالشرق الاوسط والتي صدها المصريون في الشام وجعلوا المغول يقتنعون باحتلال فارس والعراق ، ويتخذون من بغداد قاعدة لحكم القطرين .

غير أن الحملات الصليبية قد ظلت مستمرة وما زالت حتى وقتنا الحاضر ، وتظهر بين الحين والاخر وتتخذ مظاهر وأشكالا مختلفة لايسهل اخفاؤها ، وظلت الخطط توضع وتدبر المؤامرات للاستيلاء على البلاد العربية والاسلامية .

ومن الاشكال المستترة لتلك الحملات محاولات استكشاف تلك البلاد وتسجيل أحوالها ، ومعالمها وطبيعة أراضيها الجغرافية والمناخية ، واقتصادياتها وعادات أهلها وشعوبها ومعتقداتها الى غير ذلك .. وكان منهم من نجح في التسلل الى أقدس أراضي العرب والمسلمين ودخل الحرم النبوي والحرم المكي مثل وستنفلد الذي نشر مؤلفه عن مكة (١) في عام ١٨٥٨ وتبعه هير جرونبيه فنشر عنها كتابه وأطلسه (٢) وجاء بعدهم جرفيه كورتلمون فنشر عنها مؤلفه في عام ١٨٩٦ م

ولايداخلنا شك في أن الحملة الفرنسية كانت من العوامل الهامة التي أذكت اهتمام أولئكالباحثين ومن سبقهم الى نشر المؤلفات عن مصر والشام وبخاصة في ميادين العمارة والفنون ، نذكر منهم بعض الفرنسيين مثل بريس دافن الذي نشر كتابه



رواق القبلة بجامع عمرو بالفسطاط



الكبير (٤) في عام ١٨٨٧ م . وسبقه كتاب أو أطلس المعماري باسكال كوست (٥) في عام ١٨٣٩ م . كما ظهرت مؤلفات العالم بورجوان (٦) في حوالي عام ١٨٧٣ م .

وأخطر كتاب عن مصر وضعه كاتب وفنان انجليزي هو ادوارد وليم لين (٧) في أعوام ١٨٣٣ ، حتى ١٨٣٥ م . وعنوانه (عادات وتقاليد المصريين المحدثين) ونشر في عام ١٨٦٠ م . وقد تغلغل فيه كاتبه الى أعماق المجتمع المصري في ذلك الوقت وسجل فيه أدق مايمكن الوصول اليه من معلومات ، حتى أنه سجل كلمات الباعين الجائلين ونغمات نداءاتهم بالنوتة الموسيقية . ولم ينس تسجيل الكثير عن الفنون والحرف مما يضيق المقام عن ذكره ، وفي اعتقادنا أن الانجليز قد انتفعوا كثيرا بالمعلومات التي فيه عند اقدامهم على احتلال مصر سياسيا أولا ثم عسكريا بعد ذلك .

وأخذت تزداد سرعة عجلة نشر مؤلفات الباحثين عن المنطقة العربية والاسلامية منذ أواخر القرن الماضي وأوائل الحالي ، وكان منهم العالمان برونو و دومازفسكي (٨) اللذان وضعا كتابا عن منطقة الاردن والبتراء ونشر في عام ١٩٠٩ م . وكذلك مؤلف العالمين جاوسن وسافينياك (٩) الذي شمل منطقة شمال شبه الجزيرة ومنطقة العلى ومدائن صالح . ونشر العالمان فاتزنجر وفولتزنجر (١٠) مجلدا عن دمشق قبل الاسلام في سنة ١٩٢١ وأخر عنها بعد الاسلام في عام ١٩٢٤ م .

ومنهم الباحث الواز موزل الذي أعد مجلدين عن أحد القصور الصغيرة (١١) في الصحراء قرب عمان اسمه قصير عمره ، وكان ذلك في سنة ١٨٩٣ م ومنهم أيضا الباحثة جرترودبل Gertrude Bell ولها كتاب نشر في سنة ١٩١٤م (١٢) عن منطقة الشرق الاوسط العربية ، وغيرهم كثيرون .

وقبيل الحرب العالمية الاولى اهتم بعض العلماء الألمان بمنطقة العراق ، وقام العالمان زاره وهرتزفلد باعداد مسح أثري قيم لبلاد الرافدين نشراه في أربعة مجلدات تحت اسم (رحلة أثرية في منطقة الدجلة والفرات) (١٣) . ثم قاما بحفائر في منطقة مدينة سامرا التي تقع الى الشمال من مدينة بغداد وعلى بعد نحو ١٠٠ كم (١٤) .

ولايتسع المقام لذكر المزيد عن المؤلفات العديدة التي وضعت عن البلاد العربية في الشرق الاوسط وظهرت قبل الحرب العالمية الاولى التي كان من ميادينها تلك المنطقة ، وليس هناك من شك في أن أبحاث أولئك العلماء عن المنطقة قد لعبت دورا هاما في معرفة الكثير عن أحوالها وطبيعتها وطباع أهلها ، مما ساعد الحلفاء على الانتصار وهزيمة الدولة العثمانية وتقطيع أوصالها ، ثم توزيع الاقطار التي كانت خاضعة لها على الدول المتحالفة المنتصرة . وكان من أخطر نتائجها ذات المدى البعيد تقسيم الاقليم الكبير الذي كان معروفا منذ فجر التاريخ باسم الشام الى دويلات هي سوريا ولبنان والاردن وفلسطين التي تحولت الى وطن لليهود الاسرائيليين والى بقعة سرطانية على الارض العربية .

ثم زاد اشتعال الاهتمام بالدراسات والابحاث عن النواحي الحضارية للبلاد العربية الاسلامية في شرق ووسط وغرب العالم الاسلامي وما فيها من عمارة وفنون وحرف وصناعات ، وذلك لمعرفة المزيد عنها والكشف عن آثارها ، وصارت تتوالى المؤلفات عنها على هيئة مقالات وكتب وأطالس ومجلدات .



ومن المصادفات الجديرة بالذكر والمتصلة بهذه الابحاث وبالحرب العالمية الاولى ونتائجها السياسية والحضارية انه كان بسلاح المهندسين البريطاني ضابط اسمه « كيثيث ارشر كريسول »
K. A. C. Creswell
سمعت منه أنه عمل مع الجيش البريطاني في أثناء الحرب في الشرق الاوسط ، فاستهوته العمارة الاسلامية بمنطقة الشام ومصر وبعد تقاعده برتبة كابتن عمل بمديرية الاثار بالاردن فترة كان في أثنائها على صلة بآثار المنطقة القديمة للشام كلها ، ثم اتجه الى مصر وطابت له الاقامة فيها ، وأخذ انتاجه في ميدان دراسات العمارة الاسلامية يتتابع وبخاصة عن مصر والشام ، الى أن فاز بالجائزة الاولى في مسابقة تهدف الى معرفة التصميم الاصلي لجامع عمرو بن العاص في الفسطاط ·

وكان من النتائج الهامة لفوزه هذا أن أوكل اليه انشاء معهد الآثار الاسلامية ، وذلك أسوة بمعهد الاثار المصرية الذي سبقه بنحو أربع سنوات ، وكان المعهدان يتبعان كلية الاداب بجامعة فؤاد الاول (القاهرة الآن) ، ورأس الاستاذ أو الكابتن كريسول كما كان يسمى آنذاك ذلك المعهد ، وتخرجت منه الدفعة الاولى عام ١٩٣٦ م ·وتخرج منه كاتب هذه السطور في عام ١٩٤٣ بعد حصوله على بكالوريوس قسم العمارة من الاستاذ كريسول من عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ حتى عام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ م ·

وتميز الاستاذ كريسول بسعة اطلاعه على مراجع العمارة الاسلامية وبدقة تسجيله لآثارها الباقية وبخاصة في العصور الاسلامية المبكرة · ونشر دراساته في مقالات ومؤلفات تأتي على رأسها أربعة مجلدات ضخمة تعد من أمهات المراجع عن العمارة الاسلامية المبكرة (١٥) في العالم الاسلامي ثم عن العمارة الفاطمية (١٦) والايوبية والمملوكية المبكرة (١٧) في مصر · وهي مراجع توفر الكثير من المعلومات يعتمد عليها الباحثون ومنهم كاتب هذه السطور ·

غير أن أسلوبه في الكتابة عن تلك المواضيع كان يشوبه ضعف شديد في ناحيتين هامتين :احداهما تتعلق بموضوع أسس الحضارة والعمارة الاسلامية ، وتتصل الثانية بمصادر اشتقاق وأصول تصميمات وعناصر العمارة الاسلامية ، وهي في الحقيقة امتداد للناحية الاولى أو هي تدعيم لها ·

اما موضوع أسس الحضارة والعمارة الاسلامية فان الاستاذ كريسول قد وقع تحت تاثير الخلاصة التي وصل اليها من مجموعة آراء المستشرقين والباحثين الذين سبقوه او عاصروه وبذلوا كل ماوسعهم من جهود في انكار اي فضل او مساهمة لعرب شبه الجزيرة العربية في قيام وبناء الحضارة الاسلامية ثم تاكيد اتهاماتهم لهم بالتخلف والبداوة ، وحتى يصلوا من ذلك الى نسبة الفضل كله في ذلك الى جهود الاقوام من غير العرب ومن غير المسلمين في الاقطار التي تكونت منها الدولة الاسلامية ·



قلعة عربية قديمة بالقطيف

والتقط كريسول طائفة من تلك الآراء ، كان منها ما قالته جرترود بل من تأكيدها وصف الغزاة « المحمديين » بالتخلف والبداوة ، وانهم لم يعرفوا من العمارة سوى سكن في خيمة سوداء ومثوى في قبر في رمال الصحراء ، وحتى سكان المواضع المستقرة مثل الواحات النادرة المتناثرة في أرجاء شبه الجزيرة فانهم ما كانوا يعرفون الا نوعا قبيحا من العمارة من اللبن وجذوع النخل لا يزينه اي نقش ولا يصلح الا لأبسط الحاجات (١٨)

ومن عجب أن تتعرض تلك الكاتبة للحديث عن العمارة وهي لاتدري شيئا عن معناها ، وكأن العمارة في رأيها لاتسمى عمارة الا اذا كانت من الطوب والحجارة والرخام وتزينها النقوش ، أما البساطة وعدم التأنق فهو في رأيها يعد قبحا وتخلفا وهو رأي يتعارض تماما مع المعنى العلمي للعمارة ·

ثم يأتي راهب يدعى لامانس Lammens يتفجر في كتاباته حقد متأجج على العرب والمسلمين ليقول عن أغنياء قريش انهم ماكانوا يهتمون الا بالطعام وبسعة القدور ، أما مساكنهم فلم تعرف الترف ولم تكن لهم مهابة ولا يعرفون كلمة قصر · وكانوا يلجأون الى صناع أجانب اذا ماأرادوا ترميم الكعبة (١٩)

ومن الواضح أن لامانس هذا يكشف في كتابته عن تحامله وعدم حيدته وبخاصة فيما يتعلق بخبر اشتراك صانع رومي ، ولعله كان من الشام ، اذ بنى على هذا الخبر حكما عاما على جميع العصور السابقة ، ثم اللاحقة بطبيعة الحال بالعصر الاسلامي وهو حكم أخرق بغير شك ·

ومن المؤسف ان يؤمن كريسول بهذه الآراء وغيرها مثل رأى ريتشموند Richmond وهو أن مدى الامكانيات المعمارية الاسلامية قبل قيام العرب بفتوحاتهم كانت لاتكاد تكفي الا لتعبر عن حاجاتهم بطريقة غشيمة الى الدرجة القصوى (٢٠)

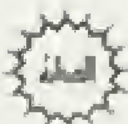
ويبدو أن هذا المهندس المعماري الذي كان مفروضا أن يتحدث عن العمارة ويستند الى براهين وتحليلات معمارية سليمة قد سار على النهج الذي سارت عليه جرترود بل التي لاتدري شيئا عن حقيقة العمارة ·



ويزيد الطين بلة أن يؤمن كريسول بتقديرات واحصاءات كالتي أتى بها كايتاني الايطالي Caetani ويصل منها الى أن سكان بلاد العرب كان تسعة أعشارهم من البدو الرحل (٢١) ولم يتساءل كريسول كما نتساءل الآن عن الطريقة التي اتبعها كايتاني لعمل احصاء لأولئك السكان في الفترة قبل الاسلام أو بعده ، ثم كيف أمكنه معرفة أن تسعة أعشارهم من البدو ، مع أن أول احصاء للمملكة العربية السعودية ، وهي أكبر دولة في شبه الجزيرة قد تم منذ ثلاث أو أربع سنوات فقط ، وما زالت هناك نواح يرى البعض أنها تحتاج لمزيد من المراجعة ·

ولا شك أن مثل تلك التقديرات الجزافية كالتي أتى بها كايتاني أو غيره تعد من ضروب الحدس والتخمين بل التضليل المغرض ، اذ لاتمت بأية صلة الى البحث العلمي السليم ·

ومن أعجب مايمكن أن يطبق على عرب ماقبل الاسلام وبعده مباشرة نظريات في علم النفس الحديث وان يكتشف عندهم عقدة التواجد في أماكن مقفلة Contigent Claustro-Phobia وأن عرب شبه الجزيرة الذين نشروا الاسلام في تلك



أما كراهية الرسول عليه السلام للعمارة بصفة مطلقة فانها أمر لايتفق بتاتا مع البناء الذي قام به هو وصحابته للدار التي اعدها لتاوي اهله والتي تحولت بعد فترة قصيرة الى مسجد كان ثاني مساجد العالم بعد مسجد قباء ولا تمنع بساطة تصميمه وبنائه وتفاصيله من ان يعد اول بناء في العمارة الاسلامية بالمعنى المتفق عليه بين المعماريين في جميع العصور ·

واعتمد كريسول (٢٢) في موضوع كراهية الرسول للعمارة على حديث روي عنه اذ قال : (ان شر ماذهب فيه مال المسلمين البنيان) ، قاله لأم سلمة عندما رآها قد أضافت الى حجرتها جدارا من اللبن ، وهو أرخص مواد البناء ، ولكنها اوضحت لرسول الله أنها هدفت من ذلك ان تكف أبصار الناس · ولو توفرت الحيدة والانصاف في فحص المعنى الحقيقي لهذا الحديث واستعرضنا الظروف التي قيل فيها ذلك الحديث لتبين أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم ينه عن البناء او يظهر كراهية له ، وانما يتضمن التنبيه على عدم الاسراف فيه ، وهو أمر طبيعي مطلوب في المراحل الاولى في الدعوة الاسلامية التي كانت تتطلب تركيز كل امكانيات المسلمين في سبيل نشر الدعوة ، وتأجيل ماعدا ذلك من نواحي النشاط الاخرى من مدنية ومعمارية ، وبخاصة مايتصف منها بالتأنق او المغالاة ·

ثم كيف يعتقد كريسول بصحة تلك الكراهية في نفس الوقت الذي يورد فيه قولا لبكر Becker (٢٣) بأن الرسول كان محبا للعظمة هو وخلفاؤه ، بدليل أنه اتخذ المنبر عندما أصبح رجلا مرموقا يستقبل السفارات ، وكان أبو بكر يتلقى فروض الطاعة في احتفال كامل وهو جالس على المنبر ، ثم سار الخلفاء والولاة من بعده على نفس المنوال ·

واذن فهناك تناقض واضح بين الرأيين او الروايتين يهدمهما من أسسهما ·

وخلص كريسول من ذلك الى النتيجة التي كان يهدف اليها فقال : (انه ليبدو ان عرب ماقبل الاسلام لم يكن لديهم الا أخشن الافكار عن البناء ،



مدائن صالح على بعد ٥٠٠ ميل شمال جدة

الرقعة الهائلة من العالم المعروف في ذلك الوقت كانوا لايطيقون العيش في منازل او عمائر من أي نوع · وهو حكم أو نظرية ترمي الى تاكيد عدم معرفتهم بالعمارة ويجب أن يضم الى الاحكام التي لاتقوم على حيثيات علمية سليمة ·

ثم أمن كريسول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يكره العمارة · وعلى فرض صحة ذلك ، وهو ليس بصحيح كما سنرى فيما بعد ، فانه دليل على معرفة العرب بالعمارة في ذلك الحين ولولا وجودها لما وجدت كراهيتها · وهكذا تنهار مرة أخرى نظرية عدم وجود عمارة في بلاد العرب·



كريسول

ولم يكن معبدهم الرئيسي (يقصد الكعبة) شيئا اكثر من مساحة صغيرة مسورة بأربعة جدران بارتفاع قامة رجل) • وكان حكمه هذا على عرب ماقبل الاسلام مقدمة لحكمه على العرب المسلمين الفاتحين فقال : « ولم يحملوا في الايام المبكرة الى الاقطار التي فتحوها شيئا معماريا يتجاوز حاجاتهم العقائدية » (٢٤)

ولم يدر كريسول أنه قد كبا كبوة معمارية عظمى ، فان حاجاتهم العقائدية البسيطة التي حملوها معهم كانت هي جوهر العمارة الاسلامية وتتمثل في المسجد وتصميمه الذي نبع من تلك الحاجات العقائدية من بساطة الدين الاسلامي ، والذي بدأت أولى حلقاته بمسجد الرسول بالمدينة المنورة ، وهو تصميم لم يتأثر بأي تقاليد معمارية سابقة ولم يقتبس منها شيئا مثلما خضع تصميم الكنيسة لتقاليد البزيليكا الرومانية والمعابد الرومانية • وما كان يليق باستاذ معروف بأنه متخصص في العمارة بأن يقع في مثل هذه الزلة •

أما من ناحية العمارة المدنية فان الظروف السائدة في البيئة أو البيئات لم تتغير بمجرد نزول القرآن أو بعد الفتوح مباشرة ، وكان من الطبيعي أن يضيف الناس الى تقاليدهم الموروثة بعضا من المجتمعات الاخرى في الاقطار التي فتحوها ، واستغرق الامر وقتا ليس بالقصير حتى نضج كل ذلك وأصبح له طابعه الاسلامي الصميم ، وهو أمر قد حدث لجميع الحضارات وطرزها المعمارية في جميع العصور ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: العمارة الرومانية ، والمسيحية ، والبيزنطية ، والاخامينية الى غير ذلك •

ومن أنواع الشطط الاخرى التي ارتكبها كريسول افتراضه بأن الجيوش العربية الفاتحة كانت تتكون من أهل مكة والمدينة ، مع أن الاسلام قد انتشر في وقت جد قصير بين غالبية القبائل في

أنحاء شبه الجزيرة ، في الشرق والشمال والجنوب واشترك الكثير من المحاربين في كل منها في الفتوح الاولى ، وكان منها من غير شك قبائل من اليمن ذات الحضارة والعمارة القديمة المعروفة . أما المناطق الاخرى من شبه الجزيرة فهناك من الادلة التاريخية والجغرافية مايدل دلالة قاطعة بأنها كانت في وقت من الاوقات تجري فيها الانهار التي تمد جماعات الناس بحاجتهم من الماء والمزروعات وأنواع المؤن ، وتحدث هيرودوت عن بلاد الحجاز وعن محلات التجار الاغريق قرب ساحل البحر الاحمر . وهي محلات ما كانت تقوم الا اذا توفر لسكانها مقومات الحياة ، والا اذا كانت على مقربة من مدن أو قرى يسكنها أهالي مستقرين فيها ، وكان بها بالتالي أنواع من الحضارة والعمارة .

ثم كيف ينكر كريسول وغيره وجود عمارة في بلاد العرب عامة والحجاز بخاصة مع ماهو معروف من وجود حصون اليهود من بني النضير وبني قريظة وبني قينقاع ، كما كان لحسان بن ثابت شاعر الرسول المخضرم حصن - وكل ذلك قليل وصلنا وغيره كثير لم يصلنا ، وهي أدلة لاتقبل الشك على أنه كان بتلك البقاع طراز معماري ليس يهوديا بطبيعة الحال ، فلم يكن لليهود في وقت من الاوقات طراز خاص بهم بل كانوا يسيرون على التقاليد السائدة في البيئة التي يعيشون فيها .

ويعزز ذلك أدلة مادية قاطعة تتمثل في الآثار المنحوتة في الصخر في منطقة تبوك وماقي شمالها حتى البتراء في جنوب الاردن حاليا ومنطقة الشام قبل تقسيم المستعمرين لها . وهي طراز من العمارة نابع من البيئة العربية في تلك المناطق ، وقيل عنه انه طراز روماني مع أنه لايمت اليه بصلة سوى تفاصيل الطنف والاعمدة وبعض الزخارف فحسب .

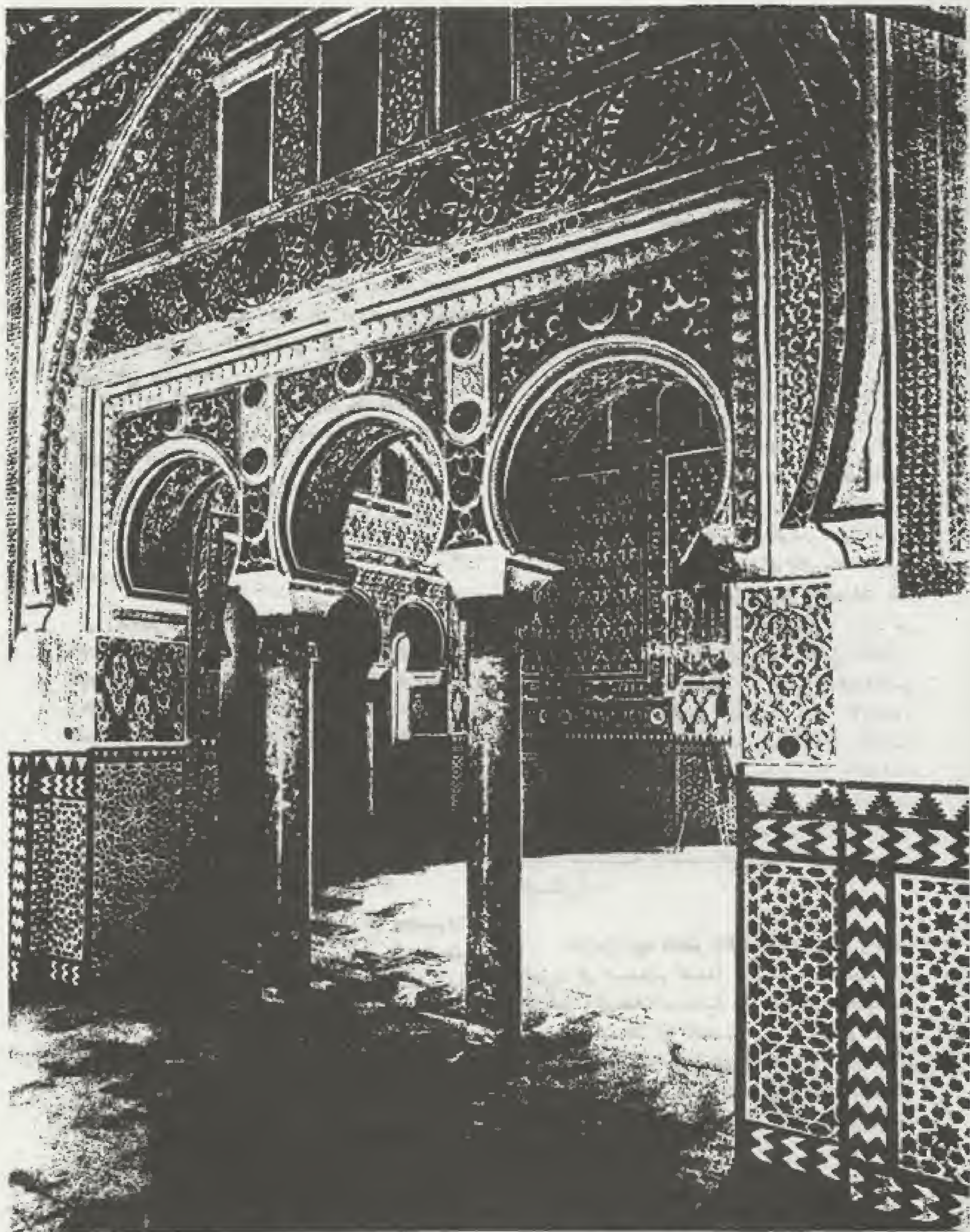
أما التكوين الذي يجمعها مع غيرها من التفاصيل والعناصر فانه يتميز بطابع محلي بعيد عن الطابع الروماني العام . ويتضح هذا بجلاء في آثار مدائن صالح (٢٥) التي اجتمعت فيها عدة عناصر وتفاصيل وزخارف من عدة طرز معمارية منها الفرعوني والآشوري والهلينستي ، وصيغت كلها في قالب محلي جعل لها طرازا خاصا بها لاهو بالروماني ولا بالآشوري ولا بالفرعوني .

أما البقاع الاخرى من الجزيرة العربية ، في وسطها وشرقيها ، فان بها طرزا معمارية قائمة أغلبها مشيد باللبن ، وهي وان كانت تعود الى قرن أو اثنين ، فانها بلا شك تمثل تراثا يعود الى أكثر من ذلك بكثير ، بل لعلها تعود الى الف او الفين من السنين ، وذلك لبعدها عن التيارات المعمارية وتاثيرات المدارس المعمارية الاسلامية التي سادت مناطق مكة والمدينة وغيرهما ، وبخاصة المدرسة العثمانية التي مازالت آثارها حية حتى الان في الحرم المكي والحرم النبوي في المدينة المنورة وفي العمائر المدنية والسكنية في منطقة الحجاز .

وتهمنا آثار المناطق الوسطى والشرقية من شبه الجزيرة لما تمتاز به من ملامح جمالية نابعة من البيئات المحلية على الرغم من مادة اللبن التي شيدت بها ، وهي أبلغ رد على تهمة القبح التي وصف المغرضون بها بساطة عمارة العرب في العصور المبكرة من العصر الاسلامي وقبله بقليل .

ومن الادلة التي لايرقى اليها شك في وجود عمارة في شبه الجزيرة من قبل الاسلام ماقام به قسم التاريخ والاثار في كلية الاداب ، جامعة الرياض ، باشراف الدكتور عبد الرحمن الانصاري من حفريات تعد أول عمل علمي منظم في احدى مناطق الآثار ، وتم الكشف عن عمائر مطمورة تحت سطح الارض في (فاو) وتثبت بالدليل القاطع أن بأرض الجزيرة العربية آثارا أخرى لحضارات طواها الزمن وطمرتها عوامل الطبيعة القاسية التي لاترحم ، وطالما أضاعت معالم حضارات كانت زاهرة وانطفأت ، وحفريات الفاو تبشر بالعثور على آثار أخرى تساعد على اثبات فساد نظرية الفراغ المعماري في شبه الجزيرة العربية ، وأن تهمة جهل العرب بالعمارة ماهي الا هراء أشاعه المستشرقون المغرضون .

ومن أهم المآخذ على هؤلاء المستشرقين أنهم أغفلوا تماما الوجود العربي في الشام والعراق ،



من روائع العمارة الاسلامية في الاندلس

مع أنهم سلموا بأن الروم ، أي البيزنطيين ، كانوا يستعينون بالغساسنة العرب على الذود عن حدود ممتلكاتهم ضد الساسانيين ، كما كانت الدولة الساسانية تعتمد على المناذرة لاداء نفس المهمة ضد الروم ، ولم يدخل المستشرقون في حسابهم أن الغساسنة والمناذرة كانوا يمثلون أكبر وأقوى القبائل والجاليات العربية في تلك المناطق ، وأنه كان هناك غيرهم من القبائل العربية ، كذلك لم يدخلوا في اعتبارهم ان يكون أولئك العرب قد اشتركوا اشتراكا فعليا وكان لهم دورهم في بناء وتطوير الحضارة والعمارة في كل من العصرين البيزنطي والساساني ، وهدف أولئك المستشرقين من هذا الاغفال أن يقنعوا الناس بأن دور العرب في تلك البقاع كان عسكريا فحسب ، وأن الجهل بالتقاليد الحضارية والمعمارية قد امتد من عرب شبه الجزيرة الى المناطق المتحضرة في شمالها ، وهو أمر يثبت سوء نية المستشرقين وأنهم تجاوزوا في ذلك حدود المنطق وأسس البحث العلمي المستقيمة .

ولعل احساس كريسول بضعف ثقته بقوة الاراء التي آمن بها وبضعف الخلاصة التي وصل اليها من اتهام عرب شبه الجزيرة بالتخلف والبداوة وعدم الدراية بالعمارة قد دفعه الى التورط واقحام نفسه في مناقشة الظروف السياسية والاقتصادية التي صاحبت قيام الدولة الاسلامية في البلاد المفتوحة وليثبت تخلف العرب في تلك النواحي الحضارية ليصل من ذلك الى تدعيم رأيه ورأي غيره فيما يتصل بالعمارة ، ونورد فيما يلي ترجمة حرفية لأهم ماكتبه في هذا الموضوع (٢٦)

(نظام الحكم : لما كان العرب لم يحضروا معهم جهازا اداريا من بلاد العرب ولما لم يكن لديهم شيء يشبهه فانهم لم يملكوا سوى أن يسيروا باستخدام النظم الادارية التي وجدوها في الشام وفارس وهكذا نتج عن ذلك أن بقي موظفو الدواوين في سوريا من السوريين وفي العراق وفارس من الفرس)

واستطرد كريسول للحديث عن السكة فقال : (نظام العملة : لم يكن لدى العرب قبل الاسلام وفي أثناء حياة مؤسسه سكة خاصة بهم ، وكانت جميع النقود المتداولة في بلادهم اما دنانير بيزنطية أو دراهم ساسانية كانت تجلب من سوريا والعراق ، بواسطة التجارة الرابحة للقوافل)

ولو كان كريسول منصفا في أحكامه منطقيا في تحليله وتناوله للموضوعات الحضارية لتبين أنه لم يحدث في التاريخ أن فتح قوم قطرا أو أقطارا وغيروا من نظم الحكم فيها بين يوم وليلة ، بل خضع الفاتحون في كثير من الاحيان لنظم الحكم والتقاليد الحضارية والمعتقدات التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة مثلما حدث للاخامينيين عندما استولوا على العراق .

وكانت تلك النظم مستقرة في البلاد التي كانت تابعة للدولة البيزنطية والدولة الساسانية لفترة لاتقل عن ثلاثة قرون وقد تزيد ، وكانت الدولة الاسلامية العربية قد استكملت فتوحاتها وتكاملت وحدتها في عهد الوليد بن عبد الملك ومن ناحية أخرى فان تعدد الاقطار التي تكونت منها الدولة العربية الاسلامية لاشك يدعو الى التريث والتمهل في تعديل النظم الحكومية ودواوينها في مختلف تلك الاقطار ذات اللغات والمشارب المتباينة ، وكان من الانصاف أن يوصف ذلك التريث والتمهل بالكياسة وحسن السياسة ، ولا شك أن الوقت الذي انقضى حتى تم تعريب دواوين الحكومة ، وهو لايتجاوز نصف قرن على الاكثر بين تأسيس الدولة الاموية واتمام ذلك التعريب لم يضع سدى ، بل كان فترة ترقب ودراسة ووضع أسس سليمة لذلك التعريب ، وكل ذلك يشهد للعرب والمسلمين بأنهم كانوا رجال سياسة وحصافة الى جانب قدراتهم العسكرية .

اما من جهة النظم المالية وسك النقود والتجاء العرب الى استخدام العملة البيزنطية الذهبية من الدنانير والعملة الساسانية من الدراهم الفضية فان ذلك ليس بمأخذ على العرب ، اذ أن الوقائع التاريخية المعروفة عن تلك العملات في بلاد العالم كله في ذلك الوقت تفسر في وضوح تام أسباب استخدام العرب لها ، بما يفند التهمة التي وجهها اليهم المستشرقون .

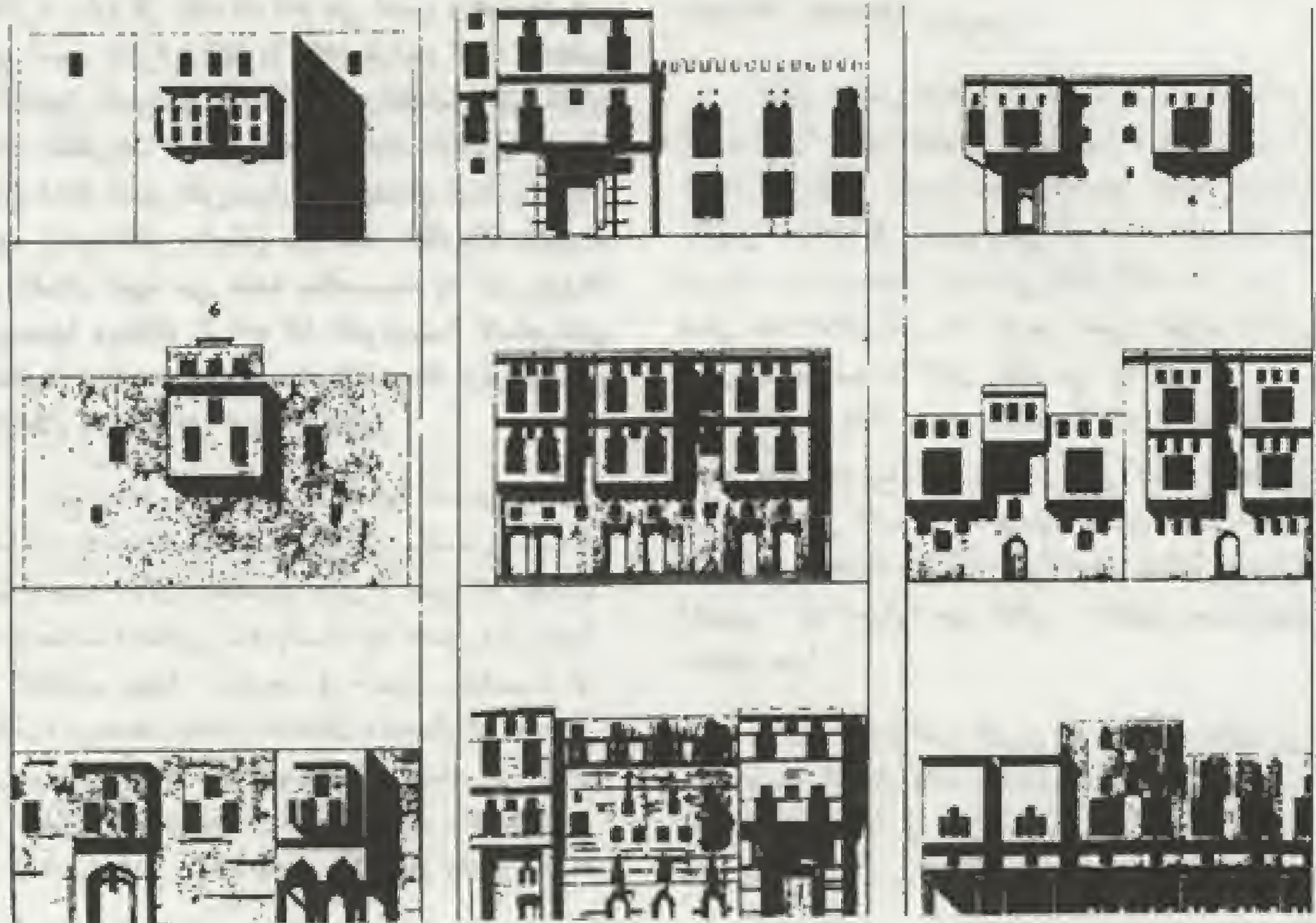
فمن الامور الثابتة تاريخيا أن الدولة البيزنطية كانت أقوى دول العالم في الوقت الذي

عاصر ظهور الاسلام ، وكان لها نفوذ اقتصادي وسياسي كبير ، كما كانت ذات ثراء عظيم بسبب ماكانت تملكه من مستعمرات كثيرة تستغل خيراتها وتمتص جهود أبنائها ، كذلك كانت صاحبة أكبر أسطول بحري في العالم ، تجاري كان أم حربي ، ولديها أغنى مناجم الذهب في ذلك الوقت .

وبسبب هذا الحول والطول كانت الدولة البيزنطية تفرض على بلاد العالم دنانيرها الذهبية التي كانت أشبه بعملة دولية امتد التعامل بها الى بلاد المحيطات الشرقية ، مثل جزيرة سيلان وغيرها وكانت تلك العملة تتمثل في (السوليدوس) ، (Solidus) و (النومزما) (Nomisma) وكل منهما كان يعادل دينارا من الذهب (٢٧) ، وبلغ من سطوة بيزنطة أن الساسانيين عندما كانوا يستعملون الفضة لدراهمهم فانهم كانوا في نفس الوقت يعتمدون على الدنانير الذهبية البيزنطية في التعامل أيضا ، وذلك نظرا لافتقارهم الى الذهب (٢٨) بل وصل الامر الى أن تملي الدولة البيزنطية على الساسانيين في معاهدة عقدوها بينهم بأن يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فحسب ، وأن لايتخذوا سكة ذهبية سوى السكة البيزنطية من الدنانير الجارية في التعامل (٢٩)

كذلك لم يقتصر نفوذ البيزنطيين على الساسانيين فحسب بل ان أباطرة الدولة البيزنطية لم يسمحوا لأحد غيرهم أن يضرب بسكة ذهبية على أي طراز سوى طرازهم ، بل ان جستنيان الاول ملك بيزنطة قد استنكر مافعله ملك الفرنجة حين ضرب سكة ذهبية باسمه وصورته ، وهو أمر ماكان يجرؤ عليه ملك الساسانيين الذي كان له حرية مطلقة في ضرب السكة الفضية ، ولم يكن يقدر على أن يضرب سكة ذهبية تحمل صورته ، فهذا الحق محرم عليه كما كان محرما على جميع البرابرة وحتى اذا ضرب ، أي الملك الساساني مثل هذه السكة فلن تتقبلها منه الشعوب التي يتعامل معها بالتجارة حتى ولو كانوا من رعاياه ، أو غرباء عن الامبراطورية البيزنطية (٣٠)

تلك كانت الحالة الدولية للتعامل النقدي في العالم في أواخر العصر الجاهلي المتأخر وفي صدر الاسلام ، ولم يكن أمام العرب والحالة هذه مناص مثل غيرهم من دول العالم المعروف في ذلك الوقت من التعامل بتلك العملات في صفقاتهم التجارية



منازل مصرية فيما بين القرنين ١٣ و ١٩ وتمتاز بطابع اسلامي خاص



ومعاملاتهم داخل الدولة الاسلامية في الشام والعراق ومصر وفارس واقطار شمال افريقيا ومع بيزنطة نفسها ، فهم لم يكونوا بأقوى من سائر الدول التي كانت تتعامل بها ، هذا فضلا عن أن جميع البلاد التي تكونت منها الدولة الاسلامية كانت تتعامل بتلك الانواع من السكة منذ قرون عديدة ، ولم يكن من الممكن ولا من الحكمة تغييرها الا في خطوات تدريجية لاتؤثر على الشؤون الاقتصادية للدولة من حيث جباية الجزية والخراج الى غير ذلك من موارد الدولة والافراد ·

ولا شك أن المسؤولين عن أمور الدولة الاسلامية الناشئة لو كانوا أسرعوا في تعريب تلك النظم في ذلك العالم الكبير الذي تكونت منه الدولة لاحدثت السرعة هزات ومشاكل لايعرف مداها ، وكل ذلك قد دعا العرب المسلمين الى التمهل والاناة مما يستحقون عليه كل تقدير ، لا أن ينسب اليهم التخلف والعجز ·

وهكذا نتبين مما سبق من تحليل لآراء ونظريات المستشرقين الذين كالوا للعرب تهم التخلف والعجز جزافا واصدروا عليهم أحكاما جائرة ، ان كل ذلك قد قام على أسس واهية بل على غير أسس بالمرة وانها ما تكاد توضع تحت الفحص والتحليل البعيدين عن الاهواء والتحامل حتى تنهار تلك النظريات والتهم الواحدة بعد الاخرى ، واذا كان هناك فضل لكريسول فانه يتمثل فيما بذله من جهد لجمع أكثر مايمكن من تلك النظريات والاراء ثم اضاف اليها من عنده ماقصد به أن يعززها ويدعمها وبذلك أتاح لنا الفرصة لاستعراض أخطرها وأشدها قسوة ، ثم لتفنيدها وتوضيح الاخطاء التي تردى فيها أصحابها ·

ولم يكتف كريسول بذلك بل تمادى في منهج دراساته للعمارة الاسلامية الى أن يخصص مكانا عند وصف الاثر المعماري وشرح مميزاته يقارن فيه وحدات وعناصر منه بأشباه لها تحمل ولو شبهة من التقارب بينها ، وتوجد في طرز سابقة أو معاصرة ويعدها مصادر اشتقاق وأصول لها ، حتى ولو لم تكن هناك صلة بينهما في الزمان أو المكان وفي أغلب الاحيان تبدو محاولاته هذه مفتعلة وعلى غير أساس سليم ، مما يجعل القارىء يخرج منها بأن الاثر المعماري منها اما أن يكون أكثره قد أخرجته أيد غير عربية وغير اسلامية أو أنه سار على تقاليد لايعرفها العرب والمسلمون الاوائل · وتتراكم عوامل الايحاء مع تعدد الامثلة حتى ينتهي القارىء الى الوقوع في شراك هذا الايحاء ويصبح أسيرا للخيوط التي نسجها من حوله ذلك المنهج من الدراسة ·

وتتجلى خطورة الآراء والنتائج التي انتهى اليها كريسول في أنها صارت قدوة ونهجا يسير عليهما المفرضون كما يتبعه النادر من العرب والمسلمين الذين حاولوا الكتابة عن العمارة الاسلامية وهم مغمضو الاعين عن الاهداف غير العلمية التي يرمي اليها ذلك النهج ، وشيد على تلك القدوة وذلك النهج المفرضون من الباحثين في تلك الميادين من الغربيين وغيرهم أحكاما ونظريات واهنة أحيانا ومفتعلة أحيانا أخرى ، أساءوا بها الى العرب والمسلمين ، كان منهم على سبيل المثال بعض ممن تخصصوا في الحضارة الاسلامية في فارس بوجه عام وفي فنونها وعمارتها بوجه خاص ، مثل اريك شرودر Eric Schroeder وارثر اوفام بوب Arthur Upham pope ودونالد ويلبر Donald Wilber وغيرهم ·

فلقد حرص هؤلاء الباحثون كل الحرص على أن يربطوا قيام الفنون والعمارة في فارس في العصر الاسلامي بأصول ساسانية على اعتبار حقيقة لاتقبل المناقشة في رأيهم وهي أن الساسانيين كانوا فرسا ، وأن دولتهم بناء على ذلك كانت فارسية · وعلى هذا الافتراض أو الزعم جعلوا المؤلف الكبير المعروف بموسوعة الفن الفارسي (٣١) A Survey of Persian Art, Vol. I-XIV الذي يغطي جميع العصور من قبل التاريخ حتى أواخر العصر الاسلامي ، جعلوه يشمل أيضا العصر الساساني باعتباره فنا فارسيا ،وهم بذلك أغمضوا اعينهم ، أو أهملوا على الاقل ، نقطتين حضاريتين هامتين هما :

الاولى : ان اسم فارس لم يبدأ في الظهور بين أسماء الدول ذات الحضارات الا مع تكوين الدولة الاخامينية في حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد ·



الجامع الازهر



السوق ــ طابع معماري خاص تمتاز به الاسواق غالبا في المدن الاسلامية

وما كادت الدولة ترسخ أقدامها وتستقر امورها حتى ألقت بأبصارها نحو البلاد ذات الحضارات العريقة في غرب فارس ·· وبدأت ببلاد مابين النهرين التي ترجع حضاراتها الى آلاف السنين قبل ظهور الاخمانيين واستولى هؤلاء على العراق واغترفوا الكثير من أسس حضاراتها وتقاليدها المعمارية وتفاصيلها وعناصرها التي تبلورت في العصر الاشوري القديم ثم القريب من العصر الاخاميني ، ثم ضموا اليها تقاليد وعناصر من الحيثيين في آسيا الصغرى والشام ومن مصر الفرعونية التي أخضعها قمبيز فترة من الزمن ، هذا الى جانب ماتأثروا به من تقاليد وأساليب الاغريق الذين دخلوا معهم في سلسلة من المعارك الضارية في البر والبحر ، وانتهت بهزيمة الفرس·

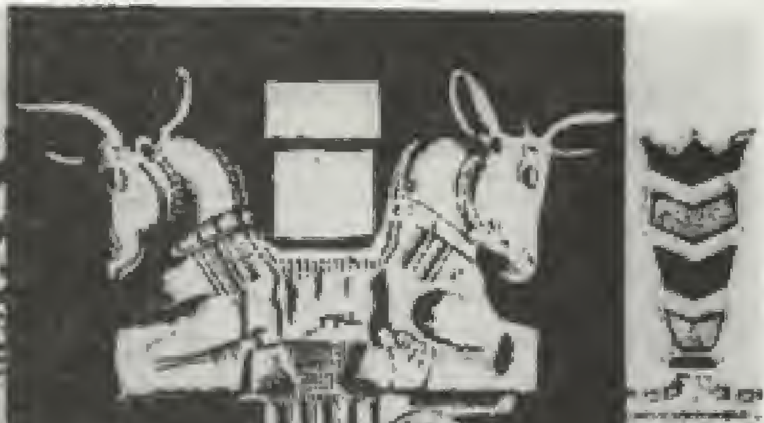
ونجح الفرس في أن يمزجوا كل مااقتبسوه من هنا وهناك في ذوق أخاميني لاشك فيه ، ويتضح بجلاء في الآثار القليلة أو النادرة الباقية من حضارة تلك الدولة الاخامينية ، منها خرائب قصور الاباطرة التي شيدت فوق احدى الهضاب في موقع عاصمة الاخامينيين المعروفة باسم برسبوليس ، وهو اسم متأثر باللغة الاغريقية ، وتقع على بعد نحو ٦٠ كيلو مترا من مدينة شيراز الاسلامية ·

والى جانب التأثير الاغريقي على اسم المدينة فان اختيار تلك الهضبة لبناء قصور الاباطرة الاخامينيين يردد فكرة اختيار هضبة الاكروبوليس في أثينا لاقامة أشهر معابد الاغريق وبوابتها المعروفة باسم Propylaea التي يصعد من خلالها الى سطح الهضبة ، والتي عملت بوابة شبيهة بها في الهضبة الاخامينية ·

كذلك يتضح تأثير العمارة الاغريقية في استعمال الاعمدة الرشيقة في قاعات العروش والقصور فوق هضبة برسبوليس ، وهي الاعمدة ذات القواعد على هيئة ناقوس مقلوب وذات التيجان الاخامينية المبتكرة والتي تجلل كلا منها راسا ثورين متدابرين ·

ثم يتجلى التأثير الأشوري في البوابات الضخمة لقاعات العروش والتي يحف بكل باب منها كتلة على كل جانب يلتصق بها نحت بارز low Relief لحيوان ذي جسم ثور ورأس لأحد أباطرة الاخامينيين ونفس الفكرة وجدت في آثار الاشوريين ، كما يتضح التأثير الاشوري في الشرافات المسننة Serrated cresting والصور البارزة النحت لمواكب أشخاص متتابعين ، وفي صور الصراع بين الملك والوحوش الضارية ، بل وفي أسلوب النحت الخفيف البروز السائد في جميع تلك الصور المنحوتة على الحجر ·

ويشاهد التأثير المصري القديم في الطنف الفرعوني Egyptian Gorge الذي يتوج الابواب في قصور الاخامينيين ، وكذلك في الاطار العريض Architrave الذي يحيط بتلك الابواب ·



كما نتبين التأثير الفرعوني في فكرة نقـــر الجبل الصخري في المكان المعروف بنقش رستم ، وذلك لتكون بمثابة قبور للاباطرة الاخامينيـين ، أما قبر دارا أو داريوش Darius والذي يوجد على بعد نحو ١٠٠ كيلو متر من برسبوليس فقد شيد بالحجر ، وكذلك معبد النار بجـوار القبور المنحوتة في الصخر في نقش رستم •

وكذلك هناك نقطتان جديرتان بالذكر ونحن بصدد شرح الاصول التي استمدت منها العمـارة الاخامينية بعض مميزاتها وخصائصها ، وتتصلان بأساليب وطرق البناء : أولاهمـا أن البقـايا المعمارية من العصر الاخاميني قد شيدت بمـادة الحجر أو الرخام مثـل العمارة الاغريقيــة ، وثانيتهما أن استعمال الاعمدة الرشيقة لحمـل السقف يدل على ان طريقة التغطية كانت بالخشب كما أن أعتاب الفتحات كانت مستقيمة أو مايطلق الاصطلاح المعماري Trebeated مثل العمارة الاغريقية ، ولم تكن تلك الاعمدة تقوى على تحمل بناء أقبية أو قباب مثل العمارة الاشورية والبابلية في بلاد مابين النهرين ، والتي كانت تبنى فيهـا باللبن أو االاجر ، وهو الاسلوب المعقود Arcuated أي الذي تغطى فيه الفتحات والاسقف بأسطح منحنية مثل العقود والاقبية والقباب ، وهي عناصر لم تعرفها فارس في العصر الاخاميني ، ولم تظهر في عمارتها الا في أيام الدولة الساسانية العراقية والتي كانت قاعـدة حكمها مدينـة المدائن في العراق •

وانتهت الدولة الاخامينية بعد ازدهـارها فترة ٢٢٠ سنة فحسب (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق م) وقضى عليها الاسكندر المقدوني واستولى على جميـع أملاكها •

ثم اتبع الاسكندر نظاما خاصا في حكم تلك البلاد اذ قسمها الى مناطق وبلاد جعل على رأسهـا أحد قواده ، فأسس سلوق الدولة السـلوقية (٣١٢ ـ ٢٤٧ ق٠م) ، وشمل حكمها العـراق وفارس ، ولكنه اختار العراق ليقيم عليها عاصمة دولته ولم يتجه الى فارس كما كان الحـال أيام الدولة الاخامينية ، وقامت سلوقيا العاصمة بالقرب من بابل القديمة ، وظلت مزدهرة حتى انتـزع البارثيون الحكم واتخذوا مدينة الحضر عاصمـة لهم على بعد نحو ١٠٠ كيـلو متر من مدينـة الموصل الحالية •

أو بمعنى آخر أن العراق قد ظل مركز حكم القطرين منذ القضاء على الاخاميتيين الفرس وحتى نهاية الدولة الساسانية التي قضى عليها العـرب المسلمون ، أي من سنة ٣٣١ ق٠م الى سنة ٦٤١ م اذ كان الساسانيون قد اتخذوا كما سبق القـول (المدائن) عاصمة لهم على أرض العراق أيضا ، والتي تشاهد آثارها على بعد نحو ٢٥ كيلو متـرا الى الجنوب من بغداد على نهر دجلة •

أما خصائص العمارة في العصر السـلوقي فكانت تقوم على التقاليد الهلينستية أي الاغريقية المطعمة ببعض التقاليدالاشورية القديمة التيكانت بقاياها ماتزال قائمة على أرض العراق ، ثماستمر الحال كذلك في العمارة البارثية مع التطور الـذي كان يجب أن يحدث مع مرور الزمن والذي يبدو واضحا في آثار مدينة الحضر Hatra والتـي تهتم الحكومة العراقية بتعميرها وتجديدها •

وأخيرا تبلورت خصائص العمارة في العصر الساساني وعاد اليها الذوق والطـابع العراقي الصريح ، وبخاصة في بناء الاقبية والقباب والعقود التي عرفها الاشوريون منذ آلاف السنين ، وكمـا يتضح من نقش بارز على بلاطة من مدينة نينوي في جنوب الموصل • ويشاهد في ذلك النقش قباب نصف كروية وقباب نصف بيضية قريبة من الشـكل المخروطـي (٣٢) Parabolic ونينـوى هي العاصمة الاشورية التي أسسها سناخريب الـذي تولى الحكم من ٧٠٥ الى ٦٨١ ق٠م

ويهمنا أن تركز الانظار على النتيجة التي يمكن الوصول اليها مما سبق من عرض وهي أن بلاد مابين النهرين كانت موطن العمارة المعقـودة من قبل العصر الساساني بآلاف السنـين ، وهي نوع من العمارة لم تعرفه فارس في العصرالاخاميني وذلك على الرغم من اقتباس الاخامينيين لكثير من التقاليد والعناصر المعمارية والفنية من الطراز الاشوري والبابلي كما شرحنا فيما سبق من تحليل وجاء فيه أن العمارة الاخامينية قد امتازت بأنهـا

عمارة المستقيمات Trebeated ولايوجد فيما بقي من آثارها ماينبيء عن خط منحن واحد لعقد أو قبو أو قبة ، وأن فارس لم تعرف العمارة المعقودة Arcuated الا في العصر الساساني وتشاهد في بعض الآثار الباقية من ذلك العصر على ارض فارس نذكر منها : قصر فيروز أباد (ش :) (٣٣) وقصر سرفستان (ش :) (٣٤) وقصر فراشاباد ، وكلها تقع في الجنوب الغربي من فارس قرب الخليج وعلى بعد قليل من الحدود الفارسية العراقية ، وفي المنطقة المعروفة باسم عربستان في الوقت الحاضر والتي لايزال أغلب أهلها يتكلم العربية الى جانب الفارسية ، وبالاضافة الى ذلك فان الخرائب المتناثرة في أنحاء أخرى من فارس وتنسب الى العصر الساساني تقع غالبيتها في المنطقة الغربية منها ، وهي منطقة تبلغ مساحتها ربع مساحة فارس ، كما تقع جهة العراق التي تنتشر فيها كلها الاثار المعمارية من العصر الساساني من شمالها الى جنوبها وقرب وحول جبال زاغروس Zagros بين أراضي مابين النهرين وفارس ٠

ومن أشهر الآثار المعمارية في العراق والتي تنسب الى العصر الساساني القصر العظيم المشهور باسم طاق كسرى الذي يعين موضعه المنطقة التي كانت بها المدائن Ctesiphon عاصمة الساسانيين ، والتي يعرف موضعهاالان باسم سلمان باك ويقع على بعد نحو ٢٥ كيلو مترا الى الجنوب من بغداد ٠

ولم يبق من ذلك القصر الآن الا الطاق أو الايوان الكبير وجناح من الواجهة الرئيسية ، وهو مسقوف بقبو هائل على شكل قطع ناقص Parabola اذ يبلغ اتساع الايوان نحو ٢٥ مترا وعمقه نحو ٤٩ مترا وترتفع قمة القبو الى نحو ٣٧ مترا ، ويبلغ سمك رجل العقد عند الارض نحو سبعة أمتار ، فلا يباريه في هذه الضخامة أي من الاقبية في العالم كله ولا حتى من أيام الرومان الذين اقتبسوا العمارة المعقودة من بلاد مابين النهرين ٠

وفي تلخيص أعده الباحث أومبرتو سيراتو Umberto SCERRATO لمعظم ما كتب عن العمارة الساسانية في مقال نشر في موسوعة فنون العالم Encyclopaedia of World Art اعترف فيه (٣٥) بالتأثير الكبير عليها من العمارة البارثية ذات التقاليد الهلينستية المتطورة من الاغريقية ، وذلك على الرغم من النزعة التي سيطرت عليه كما سيطرت على غيره وتتجه الى تأكيد الصبغة الفارسية للعمارة الساسانية ، وهو تضارب تردى فيه الجميع بغير استثناء ٠

كذلك اعترف كما اعترف غيره بأن كثيرا من الآثار الساسانية سواء كانت في العراق أو فارس ينقص الباحثين عنها المعلومات الوافية ، وما زالت الابحاث تدور حولها في دائرة مفرغة ، وما زالت محاولات الكشف عن بقاياها لم توفق الى مايشفي الغليل من حيث عناصرها ومن حيث الادلة التي تساعد على تأريخ كل منها ، وكان من نتائج هذا النقص أن أصبحت محاولات التاريخ هذه لا ضابط لها ، بل ان أغلبها يدخل في باب الاجتهاد والافتراض والتخمين بل الافتعال أحيانا ٠ وأقرب مثل لذلك محاولة تاريخ طاق كسرى في المدائن ، اذ ينسبه العالم الالماني هرتزفلد Herzfeld الى عمل شابور الاول الذي تولى الحكم من ٢٤١ الى ٢٧٢ م بينما يفضل غيره نسبة بنائه الى خسرو الاول أنو



مسجد قايتباي

شروان الذي تولى الحكم من عام ٥٣١ الى ٥٧٩ م (٣٦) ويبلغ اذن الفرق بين التاريخين اكثر من ٣٠٠ عام ويتكرر هذا النهج من التضارب والغموض في جميع محاولات التأريخ للآثار الساسانية الاخرى ، ولا يخرج القارىء للابحاث التي وضعت عنها حتى الان بنتيجة واضحة ٠

وكل مايمكن الوصول اليه من المعلومات التي لدينا حتى الان أن العمارة الساسانية هي نتاج تزاوج التقاليد العراقية القديمة من العصر البابلي وما قبله بالتقاليد الهلينستية المنبثقة من العمارة الاغريقية والرومانية والتي بدأها السلوقيون وطورها البارثيون ٠ وتم ذلك المزج على ارض العراق وامتدت منها الى اراضي فارس المتاخمة للعراق ٠ ومهما يكن من امر فمن الجدير بالتأكيد عليه أن التقاليد الهلينستية قد ذابت في التقاليد العراقية القديمة ، ومن ثم فقد تميزت العمارة الساسانية بطابع محلي جديد لايمكن الخطأ فيه ٠

أما النقطة الهامة الثانية فهي ان الغالبية العظمى من هذه الابحاث ، ان لم تكن كلها ، قد أهمل أصحابها الوجود العربي في منطقة العراق ، مع أن اللخميين من بني المنذر كانوا يقطنون العراق وكان الحكام الساسانيون يعتمدون عليهم في الدفاع عن حدود الدولة ضد غارات الروم أو البيزنطيين٠

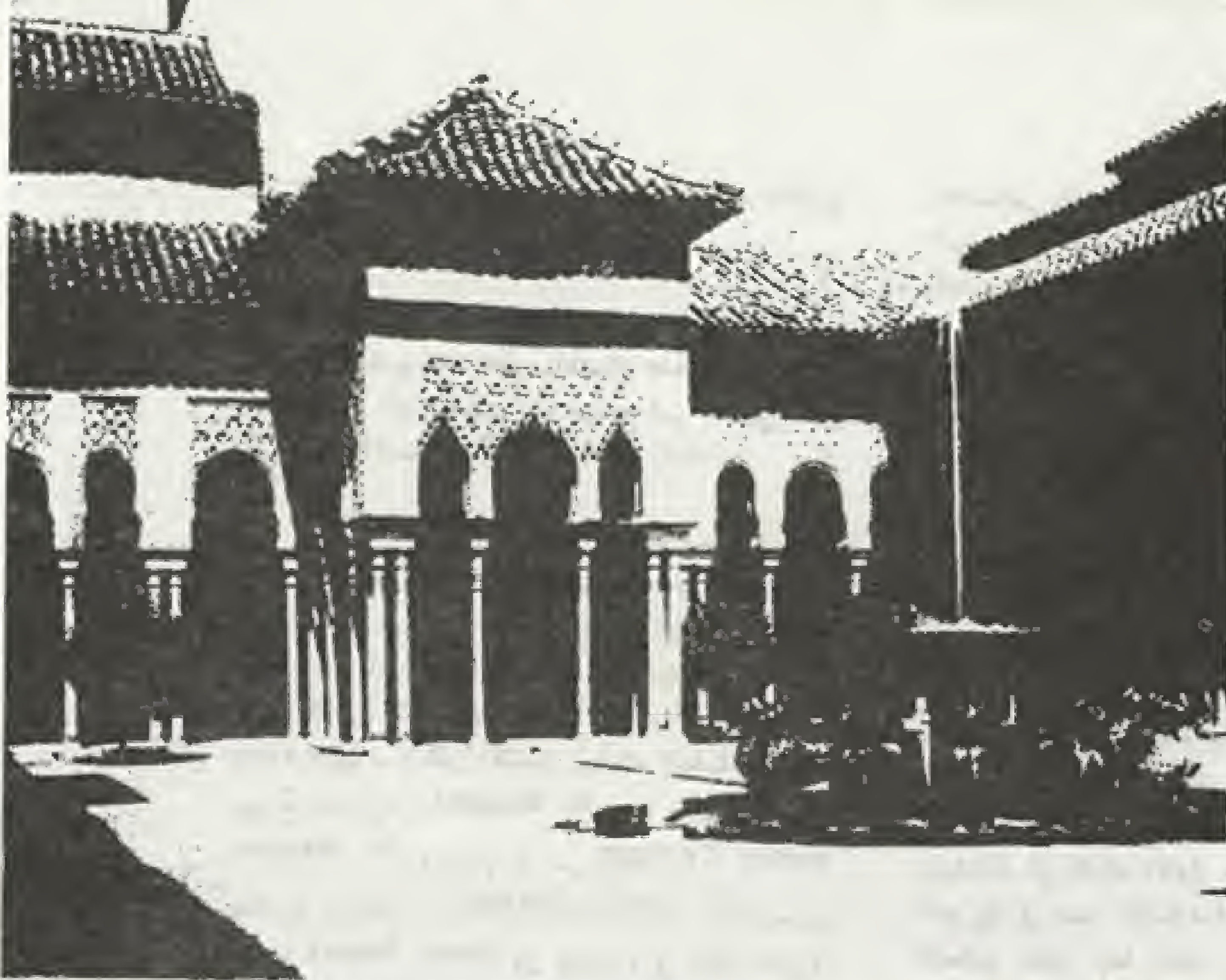
ولا نجد تفسيرا آخر لاهمال ذكر الوجود العربي في العصر الساساني سوى أنه كان متعمدا لكي لايتطرق الى الاذهان احتمال اشتراك العرب في بناء صرح الحضارة الساسانية وعمارتها المنبثقة عنها ، وحتى لاينسب اليهم أي فضل في ذلك بل يؤول كله الى الفرس والى الجنس الآري ، وهي نزعة تسود تلك البلاد منذ أكثر من نصف قرن ، وهي نزعة تحجب الكثير من الحقائق العلمية وتدعو العلماء الى الخروج عن الحيدة العلمية الواجبة اما بعدم ذكر تلك الحقائق أو بذكر عكسها ٠

ومن البديهي أن اهمال ذكر الوجود العربي في تلك المناطق في العصر الساساني وما قبله ينبني عليه اختفاء وجوده بعد الفتح الاسلامي واستيلاء العرب والمسلمين على تلك الاقطار ، ثم اختفاء أثره في بناء الحضارة الاسلامية التي اشترك فيها جميع الاجناس التي آمنت بالاسلام وجاهدت في سبيل نشره في العالم في ذلك الوقت وكان منهم العرب والفرس وغيرهم جنبا الى جنب ٠ وكان من نتيجة اهمال دور العرب في بناء الحضارة والعمارة في العصر الاسلامي أن نسب الفضل الى الجنس الفارسي فحسب أو هكذا كان العلماء المتخصصون يسعون دائما الى تأكيده ٠

أما اذا اتجهنا نحو الغرب الاسلامي فاننا لانجد الامر يختلف كثيرا عما يدور حول أصول وأسس العمارة في وسط العالم الاسلامي وشرقه ٠

فلقد خضعت الابحاث والمؤلفات عن العمارة والفنون الغربية الاسلامية لتلك النزعة من التحامل على العرب والمسلمين ، ولكنها لم تبلغ في شدتها مابلغته في وسط العالم الاسلامي وفي شرقه ، بل أنها بدأت تخف منذ فترة وبخاصة في اسبانيا وبعد أن انتهت موجات الحقد والكراهية ضد الوجود العربي على أرض الاندلس التي نتج عنها تحطيم عدد من الآثار الاسلامية والعبث ببعض آخر ٠ ثم أدرك الاسبان القيم العظيمة لذلك التراث الحضاري والمعماري الذي قام على تلك الارض في أيام العرب والمسلمين ، واهتم العلماء الاسبان من المتخصصين في تلك الميادين بتسجيل ودراسة ذلك التراث ، وتتابعت الابحاث والمؤلفات عنه ، وكان منها موسوعة الفن الاسباني في عصوره المختلفة ARS HISPANIAE (٣٧) ويضم المجلدان الثالث والرابع التراث العربي الاسلامي منذ فتح الاندلس الى مابعد نهاية الحكم العربي لتلك البلاد

ومما هو جدير بالذكر أن هذا التراث العربي الاسلامي من عمارة وفنون قد أصبح يكون ركنا هاما من الاركان التي تقوم عليها حركة السياحة في اسبانيا بل أصبح الاسبان يعتزون الان بذلك التراث ويحافظون عليه في حماس كبير ، والاكثر من ذلك أن التقاليد المعمارية التي اختفت في أقطار العالم الاسلامي أو كادت ، قد تمسك الاسبان بكثير منها وبخاصة في عمارتهم السكنية وفي غيرها وذلك على الرغم من موجات واتجاهات العمارة الحديثة



قصـــر الحمـــراء

تـــاج محـــل

التي انتشرت في العالم الاسلامي وأضاعت الملامح العربية الاسلامية من اقطاره ·

واذا اتجهنا نحو شمال أفريقيا فاننا تجد تراثها المعماري قد حظي باهتمام عدد من الباحثين أكثرهم من الفرنسيين ، وهو أمر طبيعي كان يتمشى مع الاحتلال الفرنسى لتلك البلاد ·

كذلك كان من الطبيعي ان تشوب أبحاث اولئك العلماء تلك النزعة من التحامل على العرب ومحاولة تلمس أي تأثير من البيئات المحلية وبخاصة سكان تلك المناطق من البربر على اختلاف قبائلهم، كانهم كانوا أكثر تحضرا من العرب الفاتحين واقل بداوة منهم ، وكان الاجدر بهؤلاء العلماء مثل جورج مارسيه G. Marçais ووليم مارسيه W. Marçais وهنري تراس Henry Terrasse وهنري سلادان Henry Saladin وهنري باسيه Henry Basset ان لايقعوا في تلك الكبوة، وبخاصة أن الاثار المعمارية والفنية التي بقيت من العصور السابقة على الفتح الاسلامي قليلة بل نادرة في أفريقية ، وتونس الحالية ، والمغرب الاوسط ، الجزائر حاليا ، والمغرب الاقصى ، المملكة المغربية حاليا ·

وبالاضافة الى ذلك فانه مما يستوقف النظر أنه يوجد عدد من التقاليد والعناصر المعمارية والفنية والزخرفية من أصل ساساني عراقي وأخرى من أصل هلينستي تشاهد في الاثار المعمارية العربية المبكرة التي بقيت في شمال افريقية والاندلس ، الامر الذي يدل دلالة واضحة على أن الجيوش العربية والجماعات التي تضافرت على فتح أقطار شمال أفريقيا والاندلس واستقرت فيها بعد الفتح كان من بينهم اصحاب فنون وحرف ومن قبائل عربية من مصر والشام والعراق واشتركوا في ارساء قواعد وتقاليد العمارة والفنون هناك ، كما أرسوها في وسط العالم الاسلامي وفي شرقه مع الفرس الذين اسهموا مع غيرهم من الشعوب والاجناس العربية وغير العربية في بناء صرح الحضارة والعمارة والفنون الاسلامية في اقطار العالم الاسلامي على مدى المساحة الكبيرة التي ضمت تلك الاقطار ، وعلى مدى القرون الطويلة والمراحل المختلفة التي مرت بها تلك الاقطار وهي ترفع لواء الاسلام واللغة العربية أو الحروف العربية على الاقل ·

وعلى الرغم مما يبدو من تطويل لأول وهلة لهذا العرض للابحاث التي أعدت في ميدان اصول العمارة الاسلامية ، فانه لايقاس بما يجب ان يكون عليه ، اذ هو موضوع يمكن ان يوضع فيه مجلد خاص به بل مجلدات ، وقد حاولنا في هذا العرض أن لانتمادى فيه الى الحد الواجب ، واكتفينا بتلك الملاحظات السريعة المختصرة لنضيف حلقة الى مابدأناه في المجلد الاول من كتابنا (العمارة العربية في مصر الاسلامية) من كشف المنهج غير السليم الذي تبعه أغلب من كتب عن العمارة الاسلامية من المستشرقين ، كما يكفينا فخرا اننا كنا اول من ينبه الى ذلك المنهج ويسعدنا ويثلج صدرنا أن يضيف الى ذلك الزملاء من العرب الباحثون والمهتمون بتاريخ العمارة الاسلامية، وبغير أن ينساقوا وراء أقوال أولئك المستشرقين ، أو أن يتحيزوا لجنس أو شعب فيتغالون في اظهار فضل له أو يتحاملوا ضد أخر فيبخسون حقه او يتغاضوا عن فضل يجب أن يذكر له ، فان الخلاصة التي يوصلنا اليها ذلك العرض توضح بكل جلاء أن المسلمين على اختلاف جنسياتهم وقومياتهم من عرب وفرس وبربر وشاميين وعراقيين ومصريين وغيرهم قد تضافروا ، مثلما تضافروا على نشر الدين الاسلامي ، على اقامة صرح العمارة الاسلامية مقتبسين كما اقتبس غيرهم في جميع العصور من الطرز السابقة والمعاصرة بعض الاساليب والعناصر والتفاصيل بعد تطويرها الى الحد الذي يكسبها الطابع والروح الاسلامية التي لايمكن الغطا فيها الى جانب التقاليد والاساليب والعناصر والتفاصيل التي ابتكرها المسلمون ·

الهوامش والمصادر

(1) Wüstenfeld (F.): Mecca.

(2) Hergronje (S.): Mekka.

(3) Gervais-Courtellament : Mon voyage à la Mecque.

(4) Prisse D'avennes: L'art arabe.

(5) Pascql Coste: Architecture arabe ou Monuments du Kaire.

(6) Bourgoin (J.): Les Arts arabes.

(7) Lane (Ed. W.): An account of the Manners and Customs of Modern Egyptians.

(8) Brûnnow - Domaszewski: Die Provincia Arabia.

(9) Jaussen & Savignac: Mission archéologique en Arabie.

(10) Watzinger & Wulzinger : Damaskus, Die Antike Stadt; Damaskus, Die Islamische Stadt

(11) Musil (A.) Kusejr 'Amra.

(12) Amurath to Amurath.

(13) Archaeologishe Reise im Euphrat-und Tigris-Gebiet; 1911.

(14) Die Ausgrabungen von Samarra; 1911-1927.

(15) Early Muslim Architecture, Umayyads; 1932, Early Abbasids etc., 1940.

(16) Muslim Architecture of Egypt, Fatimid; 1952.

(17) M.A.EG., Ayyubids and Early Mamluks. 1960.

(18) Palace and Mosque at Ukhaidir, p. vii.

(19) Taif à la veille de l'hégire, M.élange de l'Université St. Joseph, Beyrouth, VII, p. 183.

(20) Moslem Architecture, p. 9.

(21) Caetani (L.): Annali dell'Islam, I, pp. 442-444.

(22) E.M.A., I. p. 4.

(23) Becker: Die Kanzel in Kult s des Alten Islam, Orientalische Studien Theodor Nôldeke, I, pp. 33-51.

(24) E.M.A. I. pp. 41-94.

(25) Brunow & Domasewski: Arabia Petra; Jaussen & Savignac: Mission Archaeologique en Arabie.

(26) E.M.A., I, pp. 94-96.

(٢٧) عبد الرحمن فهمي : مجموعة النقود العربية وعلم النميات ج (١) فجر السكة العربية ص: ٣٢

(٢٨) المرجع السابق : ص ٣٣

(٢٩) المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥

(٣٠) نفس المرجع السابق ص ٣٤ ، ٣٥

(31) Rdited by A.U. pope, 1st Ed. Vols., I-VI, 1939, 2nd Ed. Vols., I-XIV, 1965.

(32) Scerrato, Enc., of World Art, Vol. XII, Col.

(33) Serrato, op. cit., Col.

(33) Scerrato, op. cit., Col.

(35) Vol. XII, Col. 702-730, Pls. 395-410, English ed., 1966.

(36) End. of W. Art, Vol. XII, Col.

(37) Madrid, 1949.



